

الي بئر جندلي

للاستاذ الدمرداش محمد

مدير ادارة السجلات والامتحانات بوزارة المعارف

— ٣ —

دعوت الله ان يغفر لي ما تقدم من ذنبي وما تأخر ، فاستجاب الله دعائي وعدت من الحج صالحاً طاهر القلب شديد الايمان ، والتحتت بالازهر فكثت فيه خمسة عشر عاماً الى ان قطعت عنى الجراية فى عهد الشيخ محمد عبده ، فتحولت الى التجارة وشغلت بعرض الدنيا ولكنى وقد ناهزت الخمسين — لازلت شديد الحنين الى الجبل فاخرج اليه كلما سنحت الفرصة فاقضى فيه أياماً قريباً من الله بعيداً عن المدينة وكدرها ثم أعود وقد تظهرت نفسى وهذا عقلى واستراح جسمى — ثم انه على غير انتظار امسك عن الكلام وترقرقت دمة فى عينه وتحول يبصره عنا واطرق برأسه ثم اطبق عينيه ونام .

كان البرد فى تلك الليلة شديداً فأوينا الى مضاجعنا مبكرين واشعلنا ناراً كبيرة لنصطفى ، وفى اول الليل اكفهر الجو وعصف الريح وابتقت السماء وارعدت وانهمر مطر غزير ثم اخذت الصواعق تنقض من حولنا ، والبرق يومض بلمعان يضىء الفضاء كأنه نور النهار ، والماء يتدفق الى الوادى بدوى شديد ، ثم فاض الوادى بسيل عنيف جارف ، فكان مشهداً رائعاً . وبعد ساعة انقشعت السحب وصفا اديم السماء واشرق الوادى بنور القمر فمرى عنا ماساورنا من قاق واضطراب ، ثم نمنا نوم الهناو العافية . وقبل الفجر استيقظت على صوت حركة غير عادية بمسكركنا فوجدت الجماعة يتقلدون سلاحهم وعلامات الاهتمام بادية على وجوههم وابتصرت الدليل ينزل الى وهدة متوسطة ويقف وراء صخرة كبيرة ويتجه يبصره نحو البئر ثم يتبعه عبد الله بك ويهمس فى اذنه بكلمات ويحتمى هو الآخر وراء حجر كبير ثم تتفرق باقى الجماعة على الصخور المجاورة ويتخذونها متاريس يكمنون وراءها وينصبون بنادقهم على حوافها — دهشت لهذا الاستعداد وانتقلت الى حيث كان خالى رابضاً واستوضحته فى صوت خافت جليلة الامر فاشار الى الدليل وقال ، انه رأى شبحين ومعهما بعير هبطا الى الوادى بالقرب من البئر وبعد ان عقلا الدابة اخذا ينسلان نحو مربوط الجبال ملزمين السفح ، فقلت هل تراهما ؟ قال ان البئر بعيد والضوء ضعيف والرؤية متعذرة .

وبعد قليل صاح الدليل : ها اكنوا لا تطلقوا النار ، ثم انه اطلق عياراً فى الهواء وعندها برز رجلان الى عرض الوادى واندفعا نحو الجبال — فصاح الدليل : جماعة اطلقوا النار فى الهواء ، فدوى فى سكون الليل صوت البنادق كأنه زجيرة المدافع فذعر الرجلان لهذه المباغته ووقفوا مكتوفى اليدين علامة التسليم ، فانتقل اليهما سويلم الجبال وقادهما الى حيث كان الدليل — فقالا أنا قادمان من المرج قاصدين وادى الحقول على البحر الأحمر فى امر مستعجل ، وفى المساء كنا نجتاز اليعقوم الأزرق فشاهدنا ناركم فخرجنا عليكم لنستدنى وما قصدنا بكم سوءاً ولكنها مداعبة على عادة البدو ، وبعد اخذ

لحظة رهيبية مرعبة ، ولولا أن ملك الجماعة زمام عقولهم وتصرفوا بما يستلزمه الموقف من بديهة حاضرة وهمة عالية ، لسقط احمد بك فى الهاوية ، ولا أدرى الآن ، وقد توالى الحوادث بسرعة مدهشة ، كيف نسنى الرفاق أن ينتشلوا زميلهم من ورطته ، وعلى كل حال فقد انتهى الحادث بسلام ، وعاد الجماعة الى ما كانوا فيه من مطاردة الأرناب ، وعند الظهر كانوا قد أنهكهم التعب وأضناه الجوع ، فلوا المطاردة وقنعوا بما أصابوه فى ذلك اليوم وكان شينا كثيراً ، فحنوا المطايا فى السير كي يصلوا وادى جندلي فى الموعد المضروب .

وكانوا حينئذ يسرون على ظهر ربوة عالية وعن يسارهم نحو الشمال ، جبل اليعقوم الأزرق بلونه القاتم ، وعن يمينهم نحو الجنوب جبل ابو شامة بقمته العالية (٢٣٠٠ قدم) ، وكانوا كلما توغلوا شرقاً تغيرت معالم الجبال وزادت ارتفاعاً ، والأودية خضرة وعمفاً ، وقبل الاصيل أقبلوا على واد شديد الانخفاض كثير التعاريج كبير الشبه بوادى دجلة ونظروا من عل فابصروا الجبال ترعى فى باطنه والاستعداد قائم حولها لتهيئة الطعام واعداد مكان المبيت ، فطابوا نفساً وقرؤوا عيناً .

يقع بئر جندلي على خمسين كيلو متراً من القاهرة على ارتفاع ٣٠٠ متر من سطح البحر ، وقد قضينا بالقرب منه ليلتين ويوماً وسط طبيعة نقية هادئة مشرقة فى صحبة أصدقاء مخلصين حباهم الله الصحة والبشر وسلامة الطوية — حقيقة انها سويغات تعد من أسعد فترات الحياة واصفاها ، وقد وافق اليوم الثالث من رحلتنا أول أيام العيد ، فى الصباح صلينا ونحونا غزالة ثم قضينا اليوم فى الوادى نلعب ونضحك وننسى ونمزح ونمزح كأننا الاطفال الصغار ، وبعد الغداء جلسنا الى الدليل نستمتع لحكاياته الطريفة عن حياته فقال — وقد مال فى جلسته واستند ظهره الى حجر كبير ، وعقد يديه على راسه — من خمس وعشرين سنة كنت شاباً شقيقاً أجوب الصحراء شرقاً وغرباً شمالاً وجنوباً لا أستقر على حال ، وفى مرة نزلت السويس وقت موسم الحج فتحككت بشيخ مغربى يحمل خرجين كبيرين ينوء بثقلهما ، فظن انى أسديه المعونة فد يده الى رأسى ودعا لى بالهداية ودعانى أن أرافقه الى الحجاز ، وقد كان فأديت الفريضة واستقبلت الكعبة ، وبصوت عميق خلته يخرج من كل جسمي

ورد امن الدليل على قولها ثم سألها عن البعير فقالا انهما وجداه
ضالا فساقاه امامهما حتى لا يقع غنيمة في يد اولاد على (اسم
قبيلة) وبعد ان نفحنهما بطعام وكبريت انصرفا بسلام وقد
تنفس الصبح ولاح .

قضينا اليوم الرابع في الصيد كذلك فوق سفوح جبل القطامية
على ثلاث ساعات شرق بر جندل وعند الظهر التقينا بوادي الغز
بجبل ابو شامة حيث كانت تنتظرنا الجمال وبقنا فيه تلك الليلة
وفي صباح اليوم الخامس غادرنا ابا شامة راجعين عن طريق
البعيرات فرق مشارف وادي دجله ، وبعد سير حثيث دام عشر
ساعات من غير انقطاع وصلنا القاهرة عند العشاء ونحن على احسن
حال وفي اجود صحة ؟
المرور اسم محمد
(الرسالة) لاحظ القارىء ولا ريب ان عبد الله بك واخوته

يمثلون جيلا من الناس اولع بالصفة الباقية من صفات الفتوة وهي
الصيد . والصيد رياضة بدنية نفسية تربي في النفوس اخلاق الرجولة
كالنخوة والمغامرة والقوة ، وقد كانت ولا تزال ديدن الملوك
والامراء والقادة ، فعسى أن يكون لهذا الجيل بقية في مصر . وأن
يكون لهذه البقية اثر صالح في توجيه الناشئة لمثل هذه الرياضة .

لغو الصيف

بقية المنشور على صفحة ٦ ،

هذا حق ولكن الادباء اصحاب كلام ، وما داموا يتكلمون فهم
يؤدون حق الناس عليهم ، فالناس لا ينتظرون منهم إلا ان يكتبوا
لهم ما يقرأون . قال : لا كل ما يقرأون ، بل ما ينتفعون به إذا
قرأوه . قالت : هنا نختلف ، فقد ينبغي أن تتفق أولا على معنى
الانتفاع بما يقرأ ، أنت تريد إذا قرأت كتابا او فصلا ان تفيد
شيئا جديدا أو ان تضيف علما الى علم ، وان تنمي حظك من
الثقافة ، او ان يثير ما تقرأه في نفسك عاطفة او لونا من ألوان
الشعور ، وانت لا ترضى من القراءة دون هذا . فانت عسير
ليست السبيل الى ارضائك سهلة ولا يسيرة . وانت لذلك تلتبس
قراءتك عند قليل جدا من ادباء الشرق ، وعند عدد غير كثير من
ادباء الغرب . ولكنك تحطى كل الخطأ حين تزعم ان القراء
جميعا يطلبون الى الكتاب مثل ما تطلب اليهم . ولو قد فعلوا
لكان الادباء شر الناس حالا وادناهم الى العجز والافلاس .
أنت وامثالك تشقون على الادباء فيما يطلبون ، ولكني أنا
وامثالي لا نطلب اليهم كل هذا أو لا نطلبه اليهم في كل وقت ،

فنحن نحب ان ننفع إذا قرأنا ، ولكننا نكتفي من القراءة بما
دون ذلك . نريد منها ان تلهينا إذا ركبنا الترام او القطار ، وان
تعيننا على انفاق الوقت إذا لم يمكننا نشاطنا من العمل ، وان تدعو
الينا النوم إذا ابطأ علينا . ولا تنضب إن زعمت لك اننا قد نصيق
بالقراءة الخصلة الغنية ، ونؤثر عليها هذه القراءة السهلة الفارغة
التي لا تنفع ولا تضر ، ولكنها تعين على انفاق الحياة . وانت
تستطيع ان تنكر على أدبائنا ما شئت ، ولكنك لن تستطيع فيما
اعتقد ان تنكر عليهم انهم يكتبون لنا من الكتب ، وينشرون
لنا من الفصول ، ويثيرون بيننا من ألوان الخصومة والحوار ما
يمكننا من ان نركب الترام والقطار ، ومن ان نقرأ إذا أجهدنا
العمل ، ومن ان تتعجل النوم إذا طال انتظارنا له . وانت تظن
ان هذا قليل ، وأؤكد لك ان هذا كثير ، فليس الامر ذو الخطر
في الحياة هو ان تتعلم وتثقف انفسنا ، وانما الامر ذو الخطر
حقا هو ان نحتمل الحياة ، وادباؤنا يعينوننا على احتمال الحياة
حقا بما يكتبون ويذيعون . قال : قد يكون هذا حقا ولكنه مؤلم
ثم سكت وأطال السكوت . وسكتت هي فاطالت السكوت .
ثم مد يده الى قدحه فاستفد ما كان فيه من ماء الورد . وأراد ان
يعود الى صمته ولكنها سأله باسمه : فيم هذا الصمت الطويل ؟
أستمع أنت لحديث الزهر ؟ أم مشفق أنت من الطير والجن ان
تم عليك بما تقول ؟ هنالك ابتسم ابتسامة شديدة المرارة وقال
في صوت حزين : كلا لست استمع للزهر ، ولا أخاف الطير
والجن وانما استمع لنفسي واخافها . فهل تعلين انك قد بغضت
الى الكتابة والاتاج الادبي منذ اليوم . قالت وهي مغرقة في
الضحك : انا اولماذا ؟ قال : من يدري ؟ لعلى لا أكتب ولا
أنشر إلا لأعين القراء على أن يركبوا الترام والقطار ، وينفقوا
الوقت إذا اضناهم العمل ، ويتعجلوا النوم إذا ابطأ عليهم النوم .
قالت : لم أقل هذا وهبني قلته ، أليس بكيفك أنت تكون عونا
لقرائك على احتمال الحياة ؟ قال : لا . قالت : انك لو اسع الطمع
عظيم الكبرياء . ثم مدت يدها الى اناء من آنية الزهر فاخذت
منها قرنفلة وضعتها في صدره ، ووردة أدتها من فمه . وقالت :
لنلتبس عزامك عند هذه الوردة ، وهذه القرنفلة فما أري إلا
انهما قادرتان على هذا العزاء . ولكنك مخطيء ان ظننت انك قد
انستقي بهذا الحديث قصة الورد والقرنفل ، فما زلت أذكرها
واتظرها . فحدث . قال : أنها يا آنسة قصة طويلة وليس هذا
وقت البدء فيها . فاذا عدت من رحلتك السعيدة الى أوروبا
فمحدثك بها ، وانا زعيم بانك ستجدين في الاستماع لها لذة
ورضى ؟
طه حسين